

مبادئ الإسلام وحماية البيئة

الدكتور أحمد رداق

جامعة عبد الرحمان، ميرة بجاية

I - إن الحديث عن الحقوق في الإسلام يقودنا دومًا إلى طرح السؤال الآتي: هل بإمكاننا الحديث عن حقوق الإنسان في الدول الإسلامية؟ ألا يوجد عائق أمام تطبيق المفهوم الحديث لحقوق الإنسان في هذه الدول؟

حول هذه التساؤلات دارت وما زالت تدور نقاشات عديدة ومختلفة، ومع ذلك يبقى الجدل الناتج عنها نسبيًا. وإذا كان الجدل يبدو بالنسبة لفئة معينة من الحقوق أساسيًا (جوهريًا)، فإنه بالنسبة لفئات أخرى من حقوق الإنسان يبدو متطابقًا مع مبادئ الإسلام.

بالفعل، فإن بعض الحقوق السياسية والمدنية تبدو في تمام التناقض مع بعض مبادئ الإسلام، بدليل أن الكثير من الدول الإسلامية لم تنضم إلى مختلف الاتفاقات والإعلانات الدولية المتعلقة بحقوق الإنسان دون أن

ترفق هذا الانضمام بتحفظات عديدة وإعلانات تفسيرية بالكيفية والمضمون اللذين يتماشيان ومبادئ الإسلام⁽¹⁾.

وعلى عكس ذلك نجد أن بعض حقوق الإنسان وردت في القرآن الكريم والحديث الشريف، وهي بمثابة العناصر الجوهرية التي تشكّل القاعدة الأساسية لهذه الحقوق التي تعرف بـ "الحقوق الحديثة"، والتي يُقصد بها "حقوق التضامن"، التي على رأسها "الحق في البيئة".

إشكاليتنا، انطلاقاً من الحق في البيئة، هي بيان الأخلاقيات والدواعي التي أدت إلى ظهور الحق في البيئة، والتي نجد لها أثراً في النصوص الإسلامية التي يعود عهدها إلى أربعة عشر قرناً خلت.

II - ما هي العناصر الهامة المعبرة بالحق في البيئة؟

- ◀ هذا الحق، حق للإنسان أساساً حتى وإن كان من يقرنه بالطبيعة عموماً.
- ◀ هو حق "التضامن"، بمعنى التضامن بين أفراد من جيل واحد وأفراد من أجيال مختلفة (الأجيال المقبلة).
- ◀ الالتزام بالمحافظة على التوازن البيئي يعني بالضرورة العمل من أجل تنمية مستدامة، أي تسيير خاص للبيئة من قبل الإنسان.

1 - انظر في ذلك الأستاذ أحمد محيو، الميثاق العربي لحقوق الإنسان، النص باللغة الفرنسية، الصادر في العدد 21 من مجلة إدارة، سنة 2001.

كلّ هذه العناصر الخاصّة بالحقّ في البيئة (أي الغاية الإنسانية للحقّ في البيئة، الطابع التضامني لهذا الحقّ بين أناس لجيل واحد وبين أناس لأجيال مختلفة، ضرورة الحفاظ على التوازن الإيكولوجي، وهذا بتحقيق التنمية المستدامة) يمكن إيجادها من خلال قراءة متأنية لنصوص الشريعة الإسلامية.

III - صاحب الحقّ في البيئة (Le titulaire du droit à l'environnement)

أ - هناك نقاش حادّ بين الفقهاء حول صاحب الحقّ في البيئة: أهو الطبيعة أم الإنسان؟⁽¹⁾

◀ هناك الميل البيئوي (La vocation environnementale) الذي يجعل الطبيعة صاحبة الحقّ في البيئة. ويتمثّل هذا الميل ويتجسّد في محاولة إعطاء الشخصية القانونية للحيوانات والأشجار. إلا أنّه يلاحظ عدم جدية هذا الميل وتفاهة هذا الاتجاه.

1 - سعيداني شبة، الاعتراف بالحق الإنساني في البيئة: بين الضرورة والمعارضة، مذكرة ماجستير، حقوق الإنسان، نيزي وزو، 2000.

◀ الاتجاه الثاني: الغاية الإنسانية للحق في البيئة (La finalité humaine du droit à l'environnement ou l'anthropocentrisme de droit à l'environnement)

- يعتبر الإنسان وحده صاحب الحق في البيئة ومصلحته هي المصلحة الوحيدة القابلة للحماية.

- غير أن اعتبار الإنسان صاحب الحق في البيئة لا يجب أن يفهم منه استبعاد احترام العناصر الأخرى المكوّنة للكون.

- إذن الإنسان هو صاحب الحق في البيئة، لكن ليس في معزل عن الطبيعة، وإنما داخل الطبيعة الجديرة بالاحترام.

ب - هذا النقاش حول صاحب الحق في البيئة ليس له مكان في الإسلام، لأن من خصائص الشريعة الإسلامية الإنسانية. فالإسلام هو دين الإنسان. والإنسان الذي هو مخلوق الله ذو مكانة خاصّة، لأنه أكرم المخلوقات على الله تعالى، قال سبحانه وتعالى: [وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا] (الإسراء، الآية 70).

إذن هناك تكريم للإنسان، ومظاهر هذا التكريم تتمثل في أن الله سخر له ما في الكون من مخلوقات. والآيات القرآنية عديدة في هذا الصدد. قال تعالى: [أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً] (لقمان، الآية 20).

بهذا نستخلص أنّ كلّ ما وُجد في الكون هو لفائدة الإنسان، ممّا يعني أنّ الإنسان له الحقّ في الموارد الموجودة في الكون، وهذا الحقّ هو حقّ بمفهومه الواسع، أي حقّ الانتفاع، وأيضاً حقّ المطالبة بالحفاظ على هذه البيئة.

I V الحقّ في البيئة، حقّ التضامن (Un droit de solidarité)

أ - إذا كان صاحب الحقّ هو بدون شكّ الإنسان، إلا أنّ هناك سؤالاً يُطرح: أيّ إنسان نعني؟ فالإنسان المعني هو الإنسان الحاضر، الذي له انتفاع بالبيئة، لكن هذا الانتفاع يجب أن يشمل كلّ الناس، ولا يقتصر على البعض. والمطالبة بالحقّ في البيئة المفتوحة أمام جميع الناس يؤدّي حتماً إلى توزيع هذا الانتفاع على جميع الناس.

وعلى هذا فالحقّ في البيئة يؤدّي إلى التضامن بين الناس المنتمين إلى نفس الجيل (Solidarité intragénération)، ومنه يكون الإنسان المعني هو أيضاً الإنسان المقبل، لهذا فالفكرة الأساسية المؤسسة للحقّ في البيئة هي أنّ هذا الحقّ لا يخصّ فقط الإنسان الحاضر، ولكن يخصّ أيضاً الإنسان المقبل.

من كلّ ما سبق نستنتج أنّ الحقّ في البيئة هو حقّ الإنسان في حاضره ومستقبله، إنّه حقّ ذو امتداد عبر الزمن، إذ هو أيضاً حقّ للأجيال المقبلة (Droit des générations futures). هذا الاهتمام بالأجيال المقبلة فيما يخصّ البيئة ظهر لأول مرة في إعلان استوكهولم

في جوان 1972. فديباجة هذا الإعلان ذكرت صراحة الهدف الرامي إلى حماية رفاهية الأجيال المقبلة، حيث إنّ «الدفاع عن البيئة وتحسينها للأجيال الحاضرة والمقبلة أصبح هدفاً أساسياً للإنسانية».

ففكرة الأجيال المقبلة أدرجت صراحة في العديد من الاتفاقات الدولية التي تأخذ بعين الاعتبار الانشغال بضمان الاستخدام الدائم للموارد البيئية، وبالتالي الأخذ بعين الاعتبار مصلحة الأجيال المقبلة.

ب - عنصر التضامن في الإسلام: فعنصر التضامن أساسي في الشريعة الإسلامية، ويستمدّ هذا التضامن فيما يخصّ البيئة ممّا يلي:
أولاً - كلّ ما هو موجود في الكون هو ملكية الإله، والإنسان ما هو إلا مستخلف فيه.

ثانياً - الإنسان له حقّ الانتفاع فقط، وله أن يستفيد من البيئة الكونية، وأن يدير مواردها فيما ينفعه وينفع غيره وسائر مخلوقات الله. فحقّ الانتفاع هذا هو حقّ مؤقت، يضبط سلوك الإنسان في تعامله مع موارد الطبيعة وثرواتها، ذلك أنّ تلك الموارد والثروات ليست ملكاً لجيل دون جيل، بل هي ملك للأجيال القادمة. وهناك العديد من الآيات القرآنية تشير إلى ذلك.

V - ضرورة الحفاظ على التوازن البيئي أو الإيكولوجي:

أ - ماذا نقصد بالتوازن الإيكولوجي؟

البيئة بصفة عامّة يحكمها ما يسمّى بـ "النظام البيئي" (écosystème)، وهو عبارة عن وحدة أو قطاع معيّن من الطبيعة، يشكّل

بما يحتويه من عناصر وموارد حيّة نباتية وحيوانية، وعناصر وموارد غير حيّة، وسطاً حيويّاً تتعايش فيه عناصره وموارده في نظام متكامل، وتسير على نهج طبيعي ثابت ومتوازن⁽¹⁾.

يتكوّن النظام البيئي من عناصر غير حيّة وأهمّها الماء، مواد التربة... وعناصر حيّة، وهي عديدة، أهمّها الإنسان، النبات، الحيوانات، الطيور. تعيش هذه العناصر في نظام حركي متكامل، حيث إنّ كلّ عنصر يتأثر بالعناصر الأخرى، ويؤثر فيها، ويؤدّي دوراً خاصّاً به. ويأتي الإنسان على قمة هذه العناصر، فينسّق بينها ويسخرها لخدمته.

◀ كيف يتمّ سير النظام البيئي؟

الفكرة الأساسية التي تهتمّنا هي فكرة ما يسمّى بالشبكة الغذائية (La chaîne alimentaire).

ماذا نقصد بمفهوم الشبكة الغذائية؟

هذا يعني أنّ كلّ عنصر حيّ سواء كان نباتاً أو حيواناً أو إنساناً يعتمد على الآخر في غذائه. فعندما تفنى الكائنات الحيّة، تتحلّل جثثها وبقاياها إلى موادّ بسيطة يتغذى منها النبات ويزدهر، ثمّ تأتي الحيوانات والحشرات، وكذلك الإنسان ليتخذوا من ذلك النبات وثماره غذاء لهم، ثمّ تصبح هذه الحيوانات والحشرات بدورها غذاء لحيوانات أخرى وللإنسان كذلك.

1 - أحمد عبد الكريم سلامة، قانون حماية البيئة الإسلامي، القاهرة، 1996.

المهم في هذا الصدد أنّ هناك ضرورة الحفاظ على هذا التنوع البيئي (biodiversité) حتّى تستمرّ هذه الشبكة الغذائية. وهذه المفاهيم العلمية لفكرة النظام البيئي والتوازن البيئي أحاطت بها الشريعة الإسلامية.

ب - مفهوم التوازن البيئي في الإسلام:

Il ne paraît pas douteux, à la lecture du Coran, que le souci d'équilibre a été la préoccupation majeure qui a présidé à la structuration de l'univers. Chacun des éléments qui le composent y occupe une place déterminée, y remplit une fonction définie au sein d'un agrément savamment dose, minutieusement balance ... »⁽¹⁾.

من قراءة هذا النصّ للأستاذ مكور نستنتج أنّ كلّ ما هو موجود في الكون، موجود بمقادير معيّنة، وبوظائف خاصّة. وهناك العديد من الآيات القرآنية تؤكد على وجود هذا التوازن الضروري.

قال تعالى: [إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ] (القمر، الآية 49).

وقال أيضاً: [وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ] (الرعد، الآية 8).

وقال أيضاً: [وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا] (الفرقان، الآية 2).

من خلال هذه الآيات الكريمة نستنتج أنّ كلّ ما في الكون أوجده الخالق العليم بقدر معلوم وحساب دقيق. فالخالق العليم لم يخلق الطّاقات

1 - Mohamed Ali MEKOUAR, Islam et Environnement: une éthique pour la conservation, Revue Juridique et politique, indépendance et coopération, 1984.

الكونية والموارد البيئية جزأاً دون ميزان أو حساب، بل خلق كل شيء بقدر.

وبما أن هذا التوازن البيئي ينجم من إرادة الخالق العليم، فيجب إذن الحفاظ على هذا التوازن الضروري وعدم الإخلال به. ومن أجل هذا الحفاظ على التوازن البيئي، وجدت بعض المناهج التي يقرّها الإسلام، وتتمثل في التزام الإنسان بـ:

أولاً: عدم التبذير فيما هو مستخلف فيه، أي الالتزام بالاستغلال العقلاني للموارد البيئية.

قال تعالى: [وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ] (البقرة، الآية 205).

وقال أيضاً: [كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ] (البقرة، الآية 6).

ثانياً: الالتزام بتنمية ما هو مستخلف فيه:

VI - خلاصة: التنمية المستدامة (Développement durable) :

من خلال ما سبق، نستنتج أن ما تسمى حالياً بالتنمية المستدامة، يمكن إيجاد عناصرها في الشريعة الإسلامية. تُعرف التنمية المستدامة بأنها تنمية الإنسان في حاضره ومستقبله. ومن أجل ذلك تتطلب التنمية المستدامة:

- أخذ حقوق الأجيال المقبلة بعين الاعتبار.

منهجاً تنموياً يؤدي إلى الحفاظ على حقوق الأجيال المقبلة، وهذا بالحفاظ على الموارد الطبيعية الضرورية، إذن ضرورة انتهاز سياسية تنموية مؤسسة على الاستغلال العقلاني للطبيعة، وهذا يوجب عدم التبذير والالتزام بتنمية ما هو موجود. وكلّ هذا يقرّره القرآن الكريم.